2

دور الأوقاف الإسلامية في تكوين العلماء والجهاد والدفاع عن قضايا الأمة

د. عبد الباسط اليربوع

أستاذ علوم الحديث وعميد أكاديمية الإمام مالك باسطنبول

- جاء الحديث عن فلسطين؛ لما فيها من مقدَّسات، وما خصَّ الله هذه البلاد من الفضائل، ومن البركة التي حلَّت عليها، ووجود المسجد الأقصى فيها.
- عانت الأوقاف الإسلامية ومؤسَّساتها مع بداية الاستعمار البريطاني من القرصنة والتضييق والتدمير الممنهج إبان عام ١٩٤٨م.

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

شرع الله الوقف وندب إليه، وجعله قربة من القرب التي يُتقرَّب بها إليه، وأصل مشروعيته من الكتاب والسنة الثابتة والإجماع.

شرع الله الوقف وندب إليه، وجعله قربة من القرب التي يتقرَّب بها إليه، وأصل مشروعيته من الكتاب والسنة الثابتة والإجماع، وينبغي على المسلم أن يُوقف أنفس وأفضل ما عنده، وليس الزائد عن حاجته، وهذا هو الأمثل والأكمل.

أمَّا الكتاب: فعموم الآيات التي تحثُّ على الإنفاق والصَّدقة، كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

قال مسلم: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي، عن ابن عمر قال: أصاب عمر أرضًا بخيبر، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضًا بخيبر لم أُصب مالًا قطُّ هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: «إن شئتَ حَبَّست أصلها وتصدَّقت بها»، قال: فتصدَّق بها عمر أنه لا يُباع أصلها ولا يُبتاع، ولا يُورث ولا يُوهب، قال: فتصدَّق عمر في الفقراء، وفي القربى، وفي الرِّقاب، وفي سبيل الله، وابن السَّبيل، والضَّيف، لا جناح على مَن وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقًا غير مُتموِّل فيه.

وهنا وقفة مهمة وهي أن يُوقف الإنسان أنفس وأفضل ما عنده، وليس الزائد عن حاجته، فوجَّهه الرَّسول ﷺ إلى الأمثل.

ونحن اليوم سنتحدث عن دور الوقف في تكوين العلماء، وفي الدفاع عن قضايا الأمة، وعلى رأسها قضية الجهاد في سبيل الله، وقضية المسجد الأقصى أولى القبلتين.

وتُعدُّ المساجد والزَّوايا والتَّكايا من أهمِّ الأوقاف التي تُرصد لها الأموال، وسيقتصر الحديث هنا على ذكر بعض المدارس ولا سيما في القرن الخامس الهجري.

ولا يخفى عليكم أن أوَّل وقف في الإسلام هو المسجد، فهو مصدر الإشعاع الروحي والعلمي، وهو مكان العبادة والتعلم، ولم يقتصر على الجانب الروحي، بل تعدَّاه إلى كثير من مناحي الحياة، وعلى رأسها العلم والتعليم، ويُعدُّ المسجد الجامعة الأولى التي تَربَّى فيها أصحاب النبي ﷺ؛ والتي لا تردُّ طالبًا، فيجتمع فيها الغني والفقير، وهذه نقطة مهمة بحيث يمكن أن يستفيد من الوقف الأغنياء أيضًا، وليس الفقراء فقط.

ولم تقتصر المساجد على التعليم، بل جُهِّزت فيها الجيوش ورُسمت فيها السِّياسات؛ فها هو ابن عمر رضي الله عنه يتناوب في طلب العلم مع جاره، وأيضًا جهَّز فيها الجيوش مثل جيش العسرة، وغيرها من الجيوش الإسلامية، وتخرَّج من تلك الجامعة -ونقصد بها المسجد النبوي- قادة الأمة، وعلى رأسهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبو عبيدة بن الجراح، وغيرهم كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

واستمر الحال كذلك حتى برز من تلك المساجد أمثال الإمام مالك بن أنس، وهو الذي لم تُشدُّ الرِّحال في وقته لعالم مثله، وغيره من أئمة الحديث، وأئمة القراءات: كأبي جعفر، والإمام نافع، ورحل إليه جهابذة أهل العلم كالإمام البخاري ومسلم ليكونوا نجومًا يُهتدى بهم.

كما تألَّق في الكوفة وبغداد: الإمام أبي حنيفة النُّعمان، وتألَّق في مسجد فسطاط

مصر: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وفي بغداد: تألق إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل، ورجال الحديث، ورواة الأدب كلهم تألقوا وخرجوا من هذه الأوقاف، فالأصل المسجد، قبل أن يتطور الأمر بعد ذلك إلى التَّكايا والمدارس التي أُوقفت من أجل التعليم، ووُقفت عليها الأوقاف للعاملين بها والمدرسين.

يعد المسجد الجامعة الأولى التي تربى فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ والتي لا ترد طالبا؛ فيجتمع فيها الغني والفقير

ومن أبرز المساجد والزَّوايا والتَّكايا التي وُجدت هو المسجد الأقصى، والذي يشكل رمزية للمسلمين، كونه أولى القبليتين، ومسرى رسول الله ﷺ، ومركز معراجه، وهو أول وقف في العهد العمري.

وكان للمسجد الأقصى الدور الرِّيادي للأمة علميًّا ودعويًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا؛ وكان كذلك بمثابة الجامعة، وقد رحل إليه العلماء من المغرب (الأندلس)، وأُقيم فيه وفي ساحاته حلقات العلم والمناظرة، واعتاد الناس أن يذهبوا إلى المسجد الأقصى في طريقهم إلى الحج، ويصلون فيه لبعد المسافة، وقد ورد في فضله الحديث المعروف والمشهور، فعندما مرَّ به ابن العربي ترك الحج وطلب إلى أبيه أن يبقى في المسجد الأقصى لطلب العلم فمكث فيه ٣ سنوات، وقال: وكان انتظام الدراسة في الأقصى قويًّا في جميع الأوقات بما فيها تلك التي كانت تشهد اضطرابًا أمنيًّا في مدينته المقدَّسة؛ وفي ذلك أيضًا يقول ابن العربي في تفسيره «أحكام القرآن»: «ورأيتُ فيه -بيت المقدس- غريبةَ الدهر؛ وذلك أن ثائرًا ثار به على واليه وامتنع فيه بالقُوت، فحصره [الوالي] وحاول قتاله بالنِّشاب مدَّة، والبلد -على صغره- مستمر على حاله..، ولا بَرَزَ

للحال من المسجد الأقصى معتكف، ولا انقطعت مناظرة، ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرَّقت فرقتين يقتتلون!!. وليس عند سائر الناس لذلك حركةٌ، ولو كان بعضُ هذا في بلادنا لاضطرمت نارُ الحرب في البعيد والقريب، ولانقطعت المعايش، وغُلِّقت الدَّكاكين، وبطل التَّعامل لكثرة فضولنا وقلَّة فضولهم».

وهذا يبين لنا فضل العلماء وفضل المقدسيين، فقد نذروا وقتهم واعتكفوا في هذا المسجد لطلب العلم والمناظرة، وهذا الاعتكاف هو الذي خرَّج لنا ابن العربي وغيره ممن ردَّ على الملاحدة الذين شوَّهوا الإسلام، وكان للعلماء دور كبير في حث المجاهدين على الالتحاق بالمسجد الأقصى حينما استغاث صلاح الدين الأيوبي فرحل إليه المجاهدون من المغرب العربي وكان في طليعتهم العلماء.

وقد ذكر ابن العربي عدة مدارس كانت موجوده في المسجد الأقصى، وهي المدرسة الناصرية التي كانت للشافعية، والمدرسة الصلاحية، ومدرسة أبي عقبة من الحنفية، وغيرها.

وإن ممايميز المسجد الأقصى أنه كانت فيه جميع المذاهب الإسلامية موجودة، ولها طلبة علم وحلقات درس، وكان فيه مناظرات في أحكام القرآن بين الشافعية والحنفية، وهذا ما يتعلق بالحركة العلمية بشكل مختصر جدًّا.

ثم بعد ذلك في عهد الأيوبيين وعهد السلطان صلاح الدين الأيوبي في العام ٥٨٣ هـ، وما أن منَّ الله عز وجل على هذا الإمام الصالح بفتح بيت المقدس حتى قام على تشجيع العلماء، وهذا يدلنا على أن أول شيء فعله أنه أوقف الأوقاف، وليس هذا فحسب؛ بل شجع العلماء على البقاء في بيت المقدس،

حيث كان يستضيف العلماء ويطلب إجازتهم.

يقول ابن كثير - رحمه الله - تعالى محدِّثًا عن صلاح الدين الأيوبي: «وأجرى لهم المرتَّبات حتى ينقطع العالم للتدريس، وأوقف للذين يقرأون القرآن أوقافًا خاصَّة تُسمَّى ربعات، كما هو معلوم في بلاد المغرب، بحيث يقسم القرآن على ٤ أجزاء، يقرأ كل واحد منهم جزءًا، بحيث يقرأ فيه المقيمون والزائرون، وتنافس بعد ذلك بنو أمية فيما يفعلونه لبيت المقدس ليستفيد من خيراتها الناس من كل حدب.

كان للمسجد الأقصى الدور الرِّيادي للأمة علميا ودعويا واجتماعيا وسياسيا؛ وكان كذلك بمثابة الجامعة، وقد رحل إليه العلماء من المغرب (الأندلس)، وأقيم فيه وفي ساحاته حلقات العلم والمناظرة..

وكان من العلماء الذين استحضرهم صلاح الدين الأيوبي: يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شدَّاد، وأكرمه، وسأله عن حديث ليسمع منه، فأخرج له جزءًا فيه أذكار من صحيح البخاري، فقرأ عليه بنفسه، ثم جمع كتابًا مجلدًا فيه فضائل الجهاد، وهو ذروة سنام الإسلام، لحثه على الجهاد، وليس الطاعة والخضوع، وقدَّمه للسلطان، ولازمه، فولَّاه قضاء العسكر في القدس، وهذا يبين لنا مدى اهتمام صلاح الدين الأيوبي بالعلماء، وتشجيعهم على البقاء في بيت المقدس.

* ومن أبرز المدارس أيضًا: المدرسة الختنية، بنيت في العام ٥٨٧هـ، يقول مجير الدين الحنبلي في كتابه «الأنس الجليل»: «إنها تقع خارج السور خلف منبر نور الدين؛ أنشأها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٧هـ، وأوقفها على الشيخ جلال الدِّين أحمد بن محمد الشاش، وعرفت بـ «الختنية» نسبة إلى الشيخ الختني، وقد وليها جماعة من الأعيان».

* وأيضًا من المدارس التي كانت في هذه الفترة: المدرسة الصلاحية، ومن باب الأسباط: وقف الملك صلاح الدين الأيوبي، وكانت كنيسة في زمن الروم، وهي نفسها التي كانت تعرف بالنَّاصرية، نسبة إلى نصر بن إبراهيم المقدسي، ووُقف على هذا الوقف أيضًا سوق العطارين والخانكانة، ومن أشهر من تولى التدريس في هذه المدرسة: الإمام ابن الصلاح المعروف، وكان ممن درَّس فيه الحافظ أبو سعيد الدمشقي، ولم تزل هذه المدرسة صرحًا علميًّا متميزًا، ثم بعدها بأعوام تحولت إلى كنيسة، والله المستعان.

وما هذه الأوقاف إلا ليستمر طلبة العلم، وخريجوها هم الذين دافعوا عن مقدسات الأمة وأراضيها وجاهدوا من أجل هذ الدين.

كما كانت الأوقاف سدًّا منيعًا في وجه الاحتلال والانتداب البريطاني والحملات الخارجية على المسجد الأقصى لحماية أراضي المسلمين من الأخطار المُحدقة بهم؛ فكانوا يرصدون الأنفار لحراسة الحدود.